

المسائل العقديّة المستنبطة من حديث "من كانت الآخرة نيته"
دراسة تحليلية

Creedal Issues Derived from the Hadith "Whoever Makes the Hereafter
His Intention"
An Analytical Study

[10.35781/1637-000-199-002](#)

د. نجلاء بنت مطر المطيري*

*أستاذ مساعد - العقيدة والمذاهب الفكرية المعاصرة
قسم الدراسات الإسلامية - كلية التربية - جامعة الملك سعود

الملخص

يهدف البحث إلى:

-بيان مفهوم حديث "من كانت الآخرة نيته" ودلالاته العامة.

-إبراز منزلة أعمال القلوب من الإيمان عند أهل السنة والجماعة.

-استنباط المسائل العقدية المتعلقة بالحديث ودراسته دراسة علمية.

-الرد على المخالفين لأهل السنة والجماعة من الجبرية والمعتزلة بالقدر.

منهج البحث: المنهج الاستقرائي التحليلي.

ومن أبرز نتائج البحث:

-تعد منزلة أعمال القلوب هي أصل الإيمان وقواعد الدين عند أهل السنة والجماعة وأعمال الجوارح تبع ومكملة لها.

-إثبات سنة الله في حقيقة الجزاء، فالجزاء من جنس العمل، وذلك لمن أراد الآخرة فتحصل له الآخرة والدنيا تبعاً ويظفر بها.

الكلمات المفتاحية: المسائل العقدية - المستنبطة - الآخرة - النية.

Creedal Issues Derived from the Hadith "Whoever Makes the Hereafter His Intention"

An Analytical Study

Dr. Najlaa bint Matar Al-Mutairi*

*Assistant Professor of Creed and Contemporary Intellectual Schools
Department of Islamic Studies – College of Education – King Saud University

Abstract:

Research Title: Creedal Issues Derived from the Hadith "Whoever Makes the Hereafter His Intention": An Analytical Study

Researcher: Najlaa bint Matar Al-Mutairi

The research aims to:

-Explain the meaning of the hadith "Whoever Makes the Hereafter His Intention" and its general implications.

-Highlight the status of the deeds of the heart as part of faith according to Ahl al-Sunnah wa al-Jamā'ah.

-Derive the creedal issues related to the hadith and study them scientifically.

-Refute the views of those who oppose Ahl al-Sunnah wa al-Jamā'ah, namely the Jabriyyah and the Mu'tazilah, regarding divine decree.

Research Method: The inductive and analytical methods.

Among the most significant findings of the research are:

-According to Ahl al-Sunnah wa al-Jamā'ah, the deeds of the heart constitute the foundation of faith and the principles of religion, while the deeds of the limbs are subordinate to and complementary to them.

-The research affirms Allah's established way in recompense: recompense is of the same nature as the deed. Whoever seeks the Hereafter will attain it, while worldly benefits follow as a consequence and may also be obtained.

Keywords: Creedal Issues; Derived; The Hereafter; Intention.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين أما بعد....

فإن من أعظم ما رسخته الشريعة وجاءت به نصوص الوحيين تقرير حقيقة الدار الآخرة وربط قلب المؤمن بها حتى تكون غاية قصده، ومحط همه فالإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان، فلا يقف أثره عند حد التصديق المجرد بل يمتد إلى توجيه الإرادة والهم والجمع بين بذل السبب وحسن التوكل على الله - سبحانه وتعالى - وترتيب الأولويات في حياة العبد.

وقد أثار هذا الحديث عدد من المسائل العقدية المتعلقة باليوم الآخر كالإخلاص وأعمال القلوب لأن الإخلاص جزء من أعمال القلوب والقضاء والقدر وحقيقة الغنى وسنن الله في الجزاء، ومن هنا جاءت أهمية دراسة هذا الحديث دراسة عقدية تستخرج ما تضمنه من مسائل الاعتقاد وتبين معانيه وتقررها على منهج أهل السنة والجماعة.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

- 1- تضمن الحديث مسائل عقدية تتعلق بأعمال القلوب.
- 2- بيان منهج أهل السنة والجماعة في الإخلاص وتوجيه الهم.
- 3- حاجة الحديث إلى إيضاح الدلالات العقدية وذلك لقلة من تناول هذا الموضوع من جانب عقدي مقارنة بتناوله من جوانب حديثية أو تربوية.
- 4- عظيم أثر الإيمان باليوم الآخر على العبد من خلال توجيه الهم وبيان درجاته.

مشكلة البحث:

تحاول مشكلة البحث الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- 1- ما المعنى الإجمالي للحديث؟
- 2- ما المسائل العقدية المتعلقة بأعمال القلوب المستنبطة منه؟
- 3- ما دلالات الحديث في توجيه الهم وحقيقة هم الآخرة؟

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى:

- 1- بيان مفهوم حديث "من كانت الآخرة نيته" ودلالته العامة.
- 2- إبراز منزلة أعمال القلوب من الإيمان عند أهل السنة والجماعة.
- 3- استنباط المسائل العقدية المتعلقة بالحديث ودراسته دراسة علمية.
- 4- الرد على المخالفين لأهل السنة والجماعة من الجبرية والمعتزلة في مسألة القدر.

منهج البحث:

اعتمد البحث على المنهج الاستقرائي في جمع النصوص المتعلقة بالحديث، وبيان حكم الحديث موضوع الدراسة بذكر درجته والحكم عليه دون دراسة الأسانيد، وتتبع أقوال العلماء وإظهار الدلالات العقدية المتضمنة للنصوص الحديث، مع الاستعانة بالمنهج التحليلي في ربط المسائل العقدية بأصول الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة.

إجراءات البحث:

سار البحث على تخريج الحديث من المصادر الأصيلة، وبيان معناه الإجمالي، ثم استخراج المسائل العقدية التي تضمنها وتوضيحها، وتوثيق الأقوال من مصادرها.

حدود البحث:

اقتصر البحث على دراسة المسائل العقدية المستنبطة من حديث "من كانت الآخرة نيته..." دون التطرق للجوانب الفقهية أو التربوية إلا بما يخدم الجانب العقدي فإنه سيتوسع فيه بماله صلة مع الإشارة إلى آراء المخالفين العقدية عند الحاجة.

الدراسات السابقة:

من خلال البحث في فهارس المكتبات، ومحركات البحث الرقمية، لم أجد دراسة مستقلة مخصصة لهذا الحديث بعينه من جهة عقدية، مما يعزز أهمية هذا البحث.

خطة البحث:

المقدمة: وفيها: أهمية البحث وأسباب اختياره، ومشكلته، وأهدافه، ومنهجه، وإجراءاته، وحدوده، والدراسات السابقة، وخطة البحث.

التمهيد: التعريف بمصطلحات الحديث وبيان دلالاته.

المبحث الأول: الدلالات العقدية المتعلقة بأعمال القلوب من حديث "مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ نِيَتَهُ"، وفيه:

المطلب الأول: منزلة أعمال القلوب عند أهل السنة والجماعة وعلاقتها بأصل الإيمان.

المطلب الثاني: إثبات سَنَةِ اللَّهِ في الجزاء: حصول الدنيا تبعاً لإرادة الآخرة.

المطلب الثالث: تقرير مشروعية الجمع بين السعي وبذل الأسباب.

المبحث الثاني: الدلالات العقدية المتعلقة بالإيمان باليوم الآخر وبالقضاء والقدر، وفيه:

المطلب الأول: دلالة الحديث على الإيمان بالقضاء والقدر.

المطلب الثاني: المخالفات العقدية في باب القدر والأسباب.

المطلب الثالث: أثر الإيمان باليوم الآخر على العبد.

الخاتمة: النتائج والتوصيات.

المصادر والمراجع.

التمهيد: التعريف بالحديث وبيان دلالة العامة:

عن زيد بن ثابت - رضي الله عنه - سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة"⁽¹⁾.

شرح ألفاظ الحديث:

"همه": الهمُّ: ما هممت به في نفسك. تقول: أهتمي هذا الأمر. والهمُّ: الحزن والهمَّةُ: ما هممت به من أمر لتفعله. يقال: إنَّه لعظيم الهمَّةِ، وإنه لصغير الهمَّة. ويقال: أهتمي الشيء، أي: أحزنني. وهمني، أذاًبني⁽²⁾. وعليه فالهم هو القصد الملازم للقلب.

فقدم المعنى القصدي أي ما يقصده "ما هممت به في نفسك" على معنى الحزن وفسر الإفعال "أهمتي الشيء، أي: أحزنني" بالحزن وفيه إشارة إلى ما يحدثه الهم من إذابة البدن وإنهاكه، وبيان أن للهم معنيان عظيمان هما ما يقصده وينويه والحزن.

"راغمة": أَيْ: "دليلة حقيرةً تابعةً له، لا يحتاج في طلبها إلى سعي كثير، بل تأتيه هيئةً ليّنةً، على رغم أنفها وأنف أربابها"⁽³⁾.

المعنى الإجمالى للحديث:

بين الحديث أن ميزان القسمة هو ما استقر في القلب من الهم والقصد المتوجه إما إلى الآخرة أو الدنيا؛ فقد علّق عليه السلام الغنى والفقر، والجمع والتفرّق، ونيل الدنيا وحرمانها عليه.

يقول ابن تيمية -:-: "التحقيق: أنَّ المسلم يجمع هذا وهذا؛ فمن لم يستسلم له، لم يكن مسلماً؛ ومن استسلم لغيره كما يستسلم له، لم يكن مسلماً؛ ومن استسلم له وحده، فهو المسلم؛ كما في القرآن: ﴿لَا يَدْرِي أَيُّ نَجْحٍ تُمْ نِي بُيْجُ بَحْ بَخْ بِمِ بِي بُيْجُ تَحْ﴾" (4).

(1) وهذا الحديث بلغه من سنن ابن ماجه، فقد أخرجه ابن ماجه (5/554، رقم 4105) في كتاب الزهد في "باب الهمّ بالدنيا.." وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (4/212): "هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات". وصحّحه ابن رجب في جامع العلوم والحكم ت الأرناؤوط 69/1، والألباني في صحيح الجامع (6510) قال الألباني (السلسلة الصحيحة 2/634، رقم 950) وله شاهد من حديث أنس بن مالك عند الترمذي - أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ حديث رقم 2465، (4/242). وإسناده ضعيف؛ ويتقوى بمجموع طرقه.

(2) العين، للخليل بن أحمد (3/3).

(3) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للملا على القاري (3334/8)، وانظر: تحفة الأحوذى، للمباركفوري (140/7).

(4) النبوات، لابن تيمية (347/1).

كما بين ابن القيم -رحمه الله- بقوله: "الجمع الذي يحصل لمن قام بذلك هو جمع الرسل وخلفائهم، وهو جمع الهمة على الله سبحانه محبةً وإنابةً وتوكلًا وخوفًا ورجاءً ومراقبةً، وجمع الهمة على تنفيذ أوامر الله في الخلق دعوةً وجهادًا. فهما جمعان: جمعٌ للقلب على المعبود وحده، وجمعٌ له على محض عبوديته"⁽¹⁾.

وعليه فالعبد يجمع بهمته لله وفي تنفيذ أوامره -سبحانه وتعالى- في خلقه دعوة وجهاداً ليتحقق الجمع والغنى ونيل الخيرية.

(1) مدارج السالكين، لابن القيم (434/4).

المبحث الأول: الدلالات العقدية المتعلقة بأعمال القلوب من حديث "مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ...": المطلب الأول: منزلة أعمال القلوب عند أهل السنة والجماعة وعلاقتها بأصل الإيمان:

أعمال القلوب هي من أصل الإيمان عند أهل السنة والجماعة وقد ذكر ابن تيمية -رحمه الله- ذلك بقوله: "وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين، مثل محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له، وهذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق باتفاق أئمة الدين"⁽¹⁾.

وبين ابن القيم -رحمه الله- أن "أعمال القلوب هي الأصل وأعمال الجوارح تبع ومكملة، وإن النية بمنزلة الروح والعمل بمنزلة الجسد - فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح"⁽²⁾.

ويؤكد الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- بأن الأعمال لازمة فيها النية بقوله: "كل عمل لابد فيه من نية، فكل عمل يعمل به الإنسان وهو عاقل مختار، فلا بد فيه من نية، ولا يمكن لأي عاقل مختار أن يعمل عملاً إلا بنية؛ حتى قال بعض العلماء لو كلفنا الله عملاً بلا نية، لكان من تكليف ما لا يطاق"⁽³⁾.

ومما يبين أن أفعال القلوب أعظم من أعمال الجوارح ما ذكره النسفي -رحمه الله- عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ أَثِمُّ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: 283]. "ولأن أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح ألا ترى أن أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر وهما من أفعال القلوب"⁽⁴⁾.

كما عبّر عن عمل القلب بأنه: "نيته، وتسليمه، وإخلاصه، وإذعانه، وحبّه وإرادته للأعمال الصالحة وعمل اللسان والجوارح: فعلُ المأمورات، وتركُ المنهيات (ولا إيمان إلا بالعمل، ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بموافقة السنة) وقد أطلق الله تعالى صفة المؤمنين حقاً في القرآن للذين آمنوا، وعملوا بما آمنوا به من أصول الدين وفروعه، وظاهره وباطنه وظهرت آثار هذا الإيمان في عقائدهم، وأقوالهم، وأعمالهم الظاهرة والباطنة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢٥﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: 2 - 4]"⁽⁵⁾.

(1) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (6/10).

(2) بدائع الفوائد، لابن القيم (1140/3).

(3) شرح رياض الصالحين، لابن عثيمين (17/1).

(4) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل، للنسفي (231/1).

(5) الوجيز في عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة، للأثري (104/1).

وقد وضع ابن القيم -رحمه الله- حقيقة الإخلاص بقوله: "فحقيقة الإخلاص: توحيد المطلوب، حقيقة الصديق: توحيد الطلب والإرادة، ولا يثمران إلّا بالاستسلام المحض للمتابعة"⁽¹⁾.
كما جاء تعريف الهمة بأنه: "مَا يملك الانبعاث للمقصود صرفاً لآ يَمَلكُ صاحبها وَلَا يَلْتَفِت عنها"⁽²⁾.

وقد ورد أن الهم على درجات: بأن الهم على ثلاث دَرَجَات: "الدَّرَجَةُ الأولى: همةٌ تصون القلب عن وحشة الرغبة في الفاني، وتحمله على الرغبة في الباقي، وتصفيه من كدر التواني. والدرجة الثانية همة تورث أنفة من المبالاة بالعلل والنزول على العمل والثقة بالأمل، والدرجة الثالثة همة تصاعد عن الأحوال والمقامات وتزرى بالأعواض والدرجات وتتحو عن النعوت نحو الدّاء"⁽³⁾.

فدل على أن للهم درجات أعلاها من تعلقته همته بالله -سبحانه وتعالى- طلباً صادقاً وخالصاً فوصلت للمقصود وظفرت بالمطلوب فحملت صاحبها على الرغبة بالآخرة والالتفاف لها.

بل وقد نقل الشراح عن السلف عنايتهم بتصحيح النية حتى في الطعام والشراب، يقول بعض السلف: من سرّه أن يَكْمُلَ له عمله فليُحَسِّنْ نيته، فإن الله تعالى يأجر العبد إذا أحسن نيته حتى باللقمة، وعن ابن المبارك قال: رُبَّ عمل صغير تُعْظَمُه النية، ورُبَّ عمل كبير تصغُرُه النية، وقال ابن عجلان: لا يصلح العمل إلا بثلاث: التقوى لله، والنية الحسنة، والإصابة⁽⁴⁾.

"فإذا أنت أخلصت النية وجردت الهمة للآخرة حصلت لك الدنيا والآخرة جميعاً وإن أردت الدنيا ذهبت عنك الآخرة حالا وربما تنال الدنيا كما تريد الآخرة وإن نلتها فلا تبقى لك فتكون قد خسرت الدنيا والآخرة"⁽⁵⁾.

المطلب الثاني: إثبات سنّة الله في الجزاء: حصول الدنيا تبعاً لإرادة الآخرة:

عند النظر للحديث فإن حقيقة التلازم الشرعي⁽⁶⁾ بين إرادة الآخرة وحصول الدنيا تبعاً: تظهر بدلالة: "من كانت الآخرة همه، ونيته رضا ربه سبحانه، فهذا قال عنه ﷺ: جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، فإذا به غني القلب لا يهتم بهذه الدنيا، ولا يريد أن يتوسع فيها توسعاً كبيراً، وإنما هو

(1) مدارج السالكين، لابن قيم (357/2).

(2) منازل السائرين، للهروي ص86.

(3) المرجع السابق، ص 86-87.

(4) البحر المحيط الشّجّاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، للأثيري (606/32).

(5) فيض القدير، الشوكاني (304/2).

(6) يسميه الأصوليون بقياس التلازم وحقيقته أي: قياس التلازم هو إثبات أحد موجبي العلة بالآخر لتلازمهما. انظر: القول السديد شرح كتاب التوحيد، ص 147، والأصول من علم الأصول، للعثيمين، ص 7.

قانع برزق الله سبحانه الذي قد كفاه هذا الرزق، -وأنته الدنيا وهي راغمة- أي: أنته الدنيا غصباً عنها؛ لأن الله كتب له رزقه أنه سيأتيه، فبحث عن الرزق من الباب الحلال، فاتاه الله تعالى به⁽¹⁾.

"وأما العمل لأجل الدنيا وتحصيل أغراضها: فإن كانت إرادة العبد كلها لهذا القصد، ولم يكن له إرادة لوجه الله والدار الآخرة، فهذا ليس له في الآخرة من نصيب.

وهذا العمل على هذا الوصف لا يصدر من مؤمن، فإن المؤمن ولو كان ضعيف الإيمان، لا بد أن يريد الله والدار الآخرة، وأما من عمل العمل لوجه الله ولأجل الدنيا، والقصدان متساويان أو متقاربان فهذا وإن كان مؤمناً فإنه ناقص الإيمان والتوحيد والإخلاص، وعمله ناقص لفقده كمال الإخلاص. وأما من عمل لله وحده وأخلص في عمله إخلاصاً تاماً ولكنه يأخذ على عمله جعلاً ومعلوماً يستعين به على العمل والدين، كالجعالات التي تجعل على أعمال الخير، وكالمجاهد الذي يترتب على جهاده غنيمة أو رزق، وكالأوقاف التي تجعل على المساجد والمدارس والوظائف الدينية لمن يقوم بها، فهذا لا يضر أخذه في إيمان العبد وتوحيده لكونه لم يرد بعمله الدنيا، وإنما أراد الدين وقصد أن يكون ما حصل له معينا له على قيام الدين"⁽²⁾.

ويشهد له من كتاب الله: ما قرره الطبري -رحمه الله- عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: 20]، من كان يُريدُ بعمله الآخرة، ﴿نَزِدْ لَهُ، فِي حَرْثِهِ﴾. يقول: نَزِدْ له في عمله الحسن، فَجَعَلَ له بالواحدة عَشْرًا، إلى ما شاء ربنا من الزيادة، ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾. يقول: وَمَنْ كان يُريدُ بعمله الدنيا، وَلَهَا يَسْعَى، لا لِلآخرة، نُؤْتِهِ مِنْهَا ما قَسَمْنَا له منها، ﴿وَمَا لَهُ، فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾. يقول: وليس لمن طلب بعمله الدنيا، ولم يُرِدِ الله به، في ثواب الله لأهل الأعمال التي أرادوه بأعمالهم في الدنيا - حظ⁽³⁾.

وكذلك ما ورد عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَنَّهُمْ اللَّهُ تَوَابِ الدُّنْيَا وَحَسَنَ تَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: 148]، "نبه أن من أراد الدنيا بآخريته لم يحصل له ثواب الآخرة، وأن من أراد الآخرة حصلت له الدنيا والآخرة معاً"⁽⁴⁾.

وهذا ما قرره أهل السنة والجماعة أن من أراد الآخرة حصلت له الآخرة والدنيا تبعاً وظفر بها، إذ الجزاء من جنس العمل بقوله أنته الدنيا وهي راغمة.

(1) شرح الترغيب والترهيب، للمنذرى (5/46).

(2) القول السديد شرح كتاب التوحيد، للسعدي ص 147.

(3) تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري (20 / 491).

(4) تفسير الراغب الأصفهاني، للراغب الأصفهاني (903/3).

فقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أن: "فمن لم يرد الدار الآخرة قولاً وعملاً وإيثاراً ومحبة ورغبة وإنابة فلا خلاق له في الآخرة ولا فائدة له في الدار الدنيا.... المحمود في الكتاب والسنة إنما هو إرادة الدار الآخرة والمذموم إنما هو من ترك إرادة الدار الآخرة واشتغل بإرادة الدنيا"⁽¹⁾.

المطلب الثالث: تقرير مشروعية الجمع بين السعي وبذل الأسباب:

فإنه من المعلوم أن المطلوب شرعاً ليس تعطيل الأسباب والسعي إنما المطلوب حقيقة هو إصلاح القلب بتوحيد المقصد وتوكله على الله -سبحانه وتعالى-.

فحقيقة التوكل هي: "القيام بالأسباب، والاعتماد بالقلب على المسبب"⁽²⁾، أجاب الإمام أحمد بن حنبل لما سئل عن التوكل: "التوكل: قطع الاستشراف باليأس من الخلق"⁽³⁾.

كما قال ابن رجب -رحمه الله- "واعلم أن تحقيق التوكل لا يُنال في السعي في الأسباب التي قدّر الله سبحانه المقدورات بها، وجرت سُنَّته في خلقه بذلك، فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة له، والتوكل بالقلب عليه إيمان به، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: 71]، وقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: 60]، وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: 10]⁽⁴⁾.

فإن الله قد أمر عباده بالاكْتِسَاب والإنفاق من طيبات ما كسبوا ولم يأمره بانتظار طعام ينزل عليه من السماء، ولو ترك السعي في طلب ما يتغذى به حتى هلك كان لنفسه قاتلاً"⁽⁵⁾.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "ومما ينبغي أن يعلم: ما قاله طائفة من العلماء قالوا: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد. ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع وإنما التوكل والرجاء معنى يتألف من موجب التوحيد والعقل والشرع"⁽⁶⁾.

فتوجيه ذلك دلالة على أن الله -سبحانه وتعالى- رب كل شيء ومليكه ومديره وأن من جعل الأسباب مستنداً عليه ومعتمداً فهو شرك.

(1) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (150/20).

(2) مدارج السالكين، لابن القيم (523/4).

(3) مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي ص 271.

(4) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (498/2).

(5) انظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (407/9).

(6) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (169/8).

كما أكد ابن أبي العز -رحمه الله- فساد قول من يقول بأن التوكل ينافي الاكتساب: "وقد ظن بعض الناس أن التوكل ينافي الاكتساب وتعاطي الأسباب، وأن الأمور إذا كانت مقدره فلا حاجة إلى الأسباب؛ وهذا فاسد... وقد كان النبي ﷺ أفضل المتوكلين، يلبس لامة الحرب، ويمشي في الأسواق للاكتساب، حتى قال الكافرون ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: 7]. ولهذا تجد كثيراً ممن يرى الاكتساب ينافي التوكل يرزقون على يد من يعطيهم، إما صدقة، وإما هدية"⁽¹⁾.

وبين السعدي -رحمه الله- ذلك بقوله: "وكذلك أسباب الرزق لا تحصل وتتم إلا بالسعي في الطلب مع التوكل على الله، قال ﷺ: "لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً" فوصف ﷺ المتوكل على الله بوصفين: السعي في طلب الرزق والاعتماد القوي على مسبب الأسباب، فمن فقد الوصفين أو أحدهما خسر وخاب، ومن سعى في الأسباب المباحة واعتمد على ربه وشكر المولى إذا حصلت له المحبوبات وصبر لحكمه عند المصائب والكريهات، فقد فاز"⁽²⁾. وأكد الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- ذلك بقوله: "ولا تقل: إن الرزق مكتوب ومحدد ولن أفعل الأسباب التي توصل إليه فإن هذا من العجز: والكياسة والحزم أن تسعى لرزقك، ولما ينفعك في دينك ودنياك"⁽³⁾.

وذكر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- "أن الأخذ بالأسباب في تحصيل المنافع ودفع المضار في الدنيا أمر مأمور به شرعاً لا ينافي التوكل على الله بحال؛ لأن المكلف يتعاطى السبب امتثالاً لأمر ربه مع علمه وبقينه أنه لا يقع إلا ما يشاء الله وقوعه. فهو متوكل على الله، عالم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له من خير أو شر"⁽⁴⁾.

فدلالة غنى القلب الموعود به "من جعل الآخرة نيته" لا يتحقق بترك الأسباب؛ فإن ذلك عجز مذموم يقدح في التوكل والشرع جميعاً؛ وإنما حقيقة الغنى تكون بتحرير التوحيد في القلب مع إبقاء السعي في الأسباب المباحة تبعاً للنية الصالحة فيجمع العبد بين الطاعة بالجوارح -السعي والابتغاء من فضل الله- والإيمان بالقلب -التوكل على مسبب الأسباب-.

(1) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الدمشقي (351/2).

(2) الفواكه الشهية في الخطب المنبرية والخطب المنبرية على المناسبات، للسعدي: ص 23. والحديث أخرجه الترمذي في الجامع، أبواب الزهد، باب في التوكل على الله، رقم (2344)، وقال: «حسن صحيح»؛ وابن ماجه في السنن، كتاب الزهد، رقم (4164)؛ حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وصححه الألباني.

(3) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين، للعثيمين (97/2).

(4) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي (316/4).

وبيّن ابن الجوزي -رحمه الله- أن الاحتراز والأخذ بالأسباب لا ينافيان التوكل، وأن التوكل إنما هو التفويض فيما لا وسع للعبد فيه ولا طاقة له عليه⁽¹⁾.

كما بين ابن رجب -رحمه الله- أن الأعمال التي يعملها العبد هي على ثلاثة أقسام: أحدها: الطاعات التي أمر الله عباده بها، وجعلها سبباً، للنّجاة من النار ودخول الجنة، فهذا لأبد من فعله مع التوكل على الله فيه، والاستعانة به عليه... فمن قصر في شيء مما وجب عليه من ذلك، استحق العقوبة في الدنيا والآخرة شرعاً وقدرأً والثاني: ما أجرى الله العادة به في الدنيا، وأمر عباده بتعاطيه، كالأكل عند الجوع، والشرب عند العطش... ونحو ذلك فهذا أيضاً واجب على المرء تعاطي أسبابه، ومن قصر فيه حتى تضرر بتركه مع القدرة على استعماله، فهو مُفَرِّطٌ يستحق العقوبة... الثالث: ما أجرى الله العادة به في الدنيا في الأعم الأغلب، وقد يخرق العادة في ذلك لمن يشاء من عباده، ويدخل بالقسم الثالث ما يقع من قصص فيمن ترك السعي في طلب الرزق، أو دخل المفازة بلا زاد، ونحو ذلك⁽²⁾.

وعليه فإن بذل الأسباب المباحة بالتوكل على الله بعد السعي، فيه إشارة إلى أن التوكل لا ينافي الإتيان بالأسباب، بل قد يكون جمعهما أفضل وإذ تمهدت القاعدة الشرعية في الأسباب، وأن التوكل لا ينافي الإتيان بالأسباب، وأن الجمع بينهما هو الأفضل⁽³⁾.

(1) انظر: تلبيس إبليس، لابن الجوزي ص 279.

(2) انظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب (502-498/2).

(3) انظر: مجلة البحوث الإسلامية - الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد العدد الحادي والتسعون /175-177.

المبحث الثاني: الدلالات العقدية المتعلقة بالإيمان باليوم الآخر وبالقضاء والقدر:

المطلب الأول: دلالة الحديث على الإيمان بالقضاء والقدر:

دل الحديث على الإيمان بالقضاء والقدر دلالة لزوم واستتباط كما في قوله: "إِنَّمَا مَا كَتَبَ لَهُ" وعرف القدر إجمالاً بأنه: "التقدير المطابق للعلم"⁽¹⁾.

كما بين الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- تعريف القدر والقضاء فقال: "قدر الله فهو شامل للقضاء، أما إذا ذكراً جميعاً؛ فكل واحد منهما معنى. فالتقدير: هو ما قدره الله تعالى في الأول أن يكون في خلقه وأما القضاء فهو ما قضى به الله -سبحانه وتعالى- في خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير، وعلى هذا يكون التقدير سابقاً"⁽²⁾.

"الإيمان بالقدر من أركان الإيمان وأصوله، وهو أن يؤمن العبد بأن الله تعالى خلق العباد وأفعالهم، وجعل أفعالهم كسباً لهم باختيارهم ولا تتم إلا بمشيئته تعالى وإرادته، فالعباد لهم في كسبهم مشيئة وإرادة فليسوا مجبورين عليها، إلا أن ذلك لا يخرج عن مشيئة الله تعالى، فليسوا خالفين لأفعالهم"⁽³⁾.

فجميع ما يقع في قلوب العباد وأحوالهم وأرزاقهم جارٍ بمشيئة الله وتقديره، وهو ما قرره أهل السنة من أن الأشياء كلها تكون بمشيئة الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، وكما قال المسلمون: ما شاء الله كان وما لا يشاء لا يكون⁽⁴⁾.

كما قرر الطبري -رحمه الله- ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أن من أثر دنياه لا يزداد بذلك من الدنيا إلا رزقاً قد فرغ منه وقسم له⁽⁵⁾.

ويقول ابن قدامه -رحمه الله-: "وليس في العالم شيء يخرج عن تقديره، ولا يصدر إلا عن تدبيره، ولا محيد عن القدر المقدور، ولا يتجاوز ما خط في اللوح المسطور، أراد ما العالم فاعلوه، ولو عصمهم لما خالفوه، ولو شاء أن يطيعوه جميعاً لأطاعوه، خلق الخلق وأفعالهم وقدر أرزاقهم وآجالهم، يهدي من يشاء برحمته، ويضل من يشاء بحكمته، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾

(1) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الدمشقي (258/2-259).

(2) مجموع فتاوى وسائل ابن عثيمين: للعثيمين (539/8).

(3) شرح الأربعين النووية، للبدر (1/6).

(4) انظر: اعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث، للخميس، ص 51-52.

(5) تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري (491/20).

[الأنبياء: 23] قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49] وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: 2]⁽¹⁾.

ففي الحديث دلالة على إثبات تقدير الرزق وكتابته، فالرزق الذي يصل إلى العبد لا يخرج عن تقدير الله سبحانه وتعالى، كما أن كثرة الحرص لا تخلق للعبد رزقاً خارجاً عما كتب له⁽²⁾.
كما أن العمل بالأسباب لا ينافي الإيمان بالقدر إذا آمن الإنسان بالقدر فلا ينافي أنه يعمل، بل أمر الإنسان بالعمل ففعل له: افعل الأسباب⁽³⁾.

المطلب الثاني: المخالفات العقدية في باب القدر والأسباب:

ولقد دل الحديث على معتقد أهل السنة والجماعة في القدر والأسباب، وهو أن الرزق مقدر مكتوب، وأن العبد فاعل لفعله حقيقة والله خالقه، وأن الأسباب مؤثرة بإذن الله وهي من القدر، وأن التوكل لا ينافي الأخذ بها⁽⁴⁾.

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- ذلك بقوله: "وتؤمن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة بالقدر: خيره وشره والإيمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين -: فالدرجة الأولى: الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلاً وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق.... وأما الدرجة الثانية: فهو مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأنه ما في السموات والأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه لا يكون في ملكه إلا ما يريد وأنه - سبحانه وتعالى - على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات"⁽⁵⁾. وقد خالفت بعض الفرق في باب القدر والأسباب ومنها:

أولاً: المعتزلة:

خالف المعتزلة أهل السنة والجماعة: بقولهم إن العباد هم المحدثون لأفعالهم بقدره مستقلة، وأن الله لم يخلقها وإنما أقدرهم عليها وعليه يترتب على ذلك أن السعي في الرزق فعل من خلق العبد لا من خلق الله.

(1) لمعة الاعتقاد، لابن قدامه ص 23.

(2) انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها الألباني (634/2)، وشعب الإيمان - ط الرشد - البيهقي (5/12).

(3) انظر: شرح فتح المجيد، للغنيمان (5/26).

(4) انظر: مجموع الفتاوى (149/3) و(192/4)، والعقيدة الواسطية، لابن تيمية، ص 23، ومجموع الفتاوى: (528/8). وقد بينت ذلك في المطلب الثالث: دلالة الحديث على مشروعية الجمع بين السعي وبذل الأسباب.

(5) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (149/3).

يقول القاضي عبد الجبار: "اتفق كل أهل العدل على أن أفعال العباد من تصرفهم وقيامهم وعودهم حادثة من جهتهم، وأن الله - عز وجل - أقدرهم على ذلك ولا فاعل لها ولا محدث سواهم وأن من قال أن الله سبحانه خالقها ومحدثها فقد عظم خطؤه⁽¹⁾".

ويقول في شرح الأصول الخمسة: "أفعال العباد لا يجوز أن توصف بأنها من الله تعالى ومن عنده ومن قبله وذلك واضح؛ فإن أفعالهم حدثت من جهتهم وحصلت بدواعيهم وقصودهم"⁽²⁾.

وهذا القول مخالف للحديث كما هو مناقض لقوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) [الصافات: 96]؛ فقد جعل الله ما يحصل للعبد من جمع الشمل والغنى والرزق من فعله سبحانه: "جعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة"، وقال في الآخر: "ولم يأتها من الدنيا إلا ما كتب له". فالذي من العبد هو الهم والسعي، وأما ما يترتب عليهما فبتقدير الله وخلقه، لا بإحداث العبد المستقل.

ثانياً: الجبرية:

وخالف الجبرية أهل السنة والجماعة: بنفيهم أن يكون للعبد فعل أو قدرة أو إرادة حقيقية، وجعلوا نسبة الفعل إليه مجازاً، وأنكروا تأثير الأسباب

حكى أبو الحسن الأشعري عن جهم: "وأنه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا الله وحده وأنه هو الفاعل وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز كما يقال: تحركت الشجرة ودار الفلك وزالت الشمس"⁽³⁾.

وحكى الشهرستاني مذهبه: "إن الإنسان لا يقدر على شيء، ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور في أفعاله؛ لا قدرة له، ولا إرادة، ولا اختيار، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات... والثواب والعقاب جبر، كما أن الأفعال كلها جبر. قال: وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضاً كان جبراً"⁽⁴⁾.

وقد قال شيخ الإسلام - رحمه الله - بعد أن ذكر قول من زعم أن الله "لا يفعل الأشياء بالأسباب؛ بل يفعل عندها لا بها" وأول من قاله في الإسلام جهم بن صفوان الذي أجمعت الأمة على ضلالتة؛ فإنه أول من أنكر الأسباب والطبائع"⁽⁵⁾.

(1) المغني في أبواب التوحيد والعدل، للقاضي عبد الجبار (3/8).

(2) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص 778.

(3) مقالات الإسلاميين، للأشعري، ص 279.

(4) الملل والنحل: للشهرستاني (87/1).

(5) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (192/4).

وذكر شيخ الإسلام -رحمه الله- أن من الضالين في القدر قوماً آمنوا بالقضاء والقدر... لكن عارضوا هذا بالأمر والنهي، وسمّوا هذا حقيقة، وجعلوا ذلك معارضةً للشرعية، وفيهم من يقول: إن مشاهدة القدر تنفي الملام والعقاب"، ثم بين تناقضهم بأنهم "لا يسوون بين من أحسن إليهم وبين من ظلمهم"⁽¹⁾.

وفي الحديث ردٌّ على الجبرية وإبطال لقولهم من وجوه:

- أن قوله ﷺ: "من كانت الآخرة نيته" أضاف الهمم والإرادة إلى العبد حقيقة، ولو كانت النسبة مجازاً لما صحَّ أن يُمدح عليها أو يُذمَّ.
- أن التفريق بين جزاء من همَّ الآخرة ومن همَّ الدنيا دليلٌ على أن العبد يُجازى على اختياره، وهذا يبطل قول جهم: "والثواب والعقاب جبر".
- أن قوله: "جعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا" فعلٌ لله مرتَّب على سبب من العبد، ففيه إثبات السببية التي أنكرها جهم.

ثالثاً: الأشاعرة:

وخالف الأشاعرة أهل السنة والجماعة: فهم يقولون بأن الله خالق أفعال العباد لكنهم ينفون أن يكون لقدرة العبد أو للأسباب أي تأثير؛ فالسبب عندهم علامة يقترب بها المسبب عادةً، لا مؤثر فيه.

قال أبو حامد الغزالي -رحمه الله- في نفي تأثير الأسباب: "الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً وما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا... مثل الري والشرب والشبع والأكل والاحتراق ولقاء النار... وإن اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه يخلقها على التساوق لا لكونه ضرورياً في نفسه"⁽²⁾.

وفي الكسب ونفي تأثير قدرة العبد قرر الإيجي -رحمه الله-: "أن أفعال العباد الاختيارية واقعة بقدرة الله تعالى وحدها"⁽³⁾، ويقول الجرجاني: "ليس لقدرة العباد تأثير فيها بل الله سبحانه أجرى عادته بأن يوجد في العبد قدرة واختياراً، فإذا لم يكن هناك مانع أوجد فيه فعله المقدور مقارناً لهما فيكون الفعل مخلوقاً لله إبداعاً وإحداثاً، ومكسوباً للعبد"⁽⁴⁾.

كما ذكر الآمدي -رحمه الله-: "أن أفعال العباد مُضَافَةٌ إِلَيْهِمْ بالاكتساب وَإِلَى اللَّهِ تَعَالَى بالخلق والاختراع وَأَنَّهُ لَأَثَرٌ لِلْقُدْرَةِ الْحَادِثَةِ فِيهَا أَصْل"⁽⁵⁾.

(1) المرجع السابق، (300/2).

(2) تهافت الفلاسفة، للغزالي، ص 237.

(3) المواقف في علم الكلام، للأيجي، ص 311.

(4) شرح المواقف، للجرجاني، ومعه حاشيتي السيلكتوتي، والجلبي (162/8).

(5) غاية المرام في علم الكلام، للآمدي، ص 207.

وفي الحديث ما يردّ هذا القول؛ فقد رتب النبي ﷺ جمع الشمل والغنى على همّ الآخرة، وتفريق الشمل والفقر على همّ الدنيا، ترتيباً الجزاء على سببه. فدلّ على أن لإرادة العبد وسعيه أثراً حقيقياً فيما يترتب عليهما بإذن الله، لا مجرد اقتران عادي. وبهذا يتبين أن مذهب أهل السنة وسطٌ بين المعتزلة الذين جعلوا العبد مستقلاً بفعله، ونفاة التأثير الذين سلبوا قدرته وسببته أثرها.

رابعاً: غلاة الصوفية:

وخالف طائفة من غلاة الصوفية: بقولهم أن التوكل الكامل يقتضي ترك الكسب وبذل الأسباب، وجعلوا الكسب رخصة للضعفاء.

فمن تعريفهم التوكل بأنه قطع الأسباب ما نقله القشيري - رحمه الله - قال: "سئل ذو النون المصري عن التوكل فقال: خلع الأرباب وقطع الأسباب"⁽¹⁾.

وسئل أبو عبد الله القرشي - رحمه الله - عن التوكل فقال: التعلق بالله تعالى في كل حال، فقال السائل: زدني، قال: "ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولي لذلك"⁽²⁾.

فدلالة الحديث تبين بطلان قولهم إذ جعلوا قطع الأسباب من حقيقة التوكل، وأهل السنة يجعلون التوكل عمل القلب مع الأخذ بالسبب المأمور به. ورد ابن القيم عليهم أن: "ترك الأسباب المأمور بها قاذٌ في التوكُّل"⁽³⁾ ويرده قوله غناه في قلبه، المدح لحال القلب لا لترك العمل.

ومن تفضيلهم ترك الكسب أن أبا حامد الغزالي قسّم المتوكلين في ملابسة الأسباب ثلاثة مقامات، فقال: "المتوكلون في ملابسة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات الأول مقام الخواص ونظرائه وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه... ثم قال في الثاني: أن يتعد في بيته أو في مسجد... وهذا أضعف من الأول لكنه أيضاً متوكل لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة، وجعل المكتسب في المقام الثالث"⁽⁴⁾.

وقال أبو إسماعيل الهروي - رحمه الله - في التوكل: "وهو من أصعب منازل العامة عليهم وأوهى السبل عند الخاصة ثم جعل الدرجة الأولى "التوكل مع الطلب ومعاطاة السبب"، وفوقها "التوكل مع إسقاط الطلب وغض العين عن السبب"⁽⁵⁾.

(1) انظر الرسالة القشيرية، للقشيري، ص 412.

(2) المرجع السابق: (412).

(3) مدارج السالكين، لابن القيم (389/2).

(4) إحياء علوم الدين، للغزالي (268/4).

(5) منازل السائرين، للهروي (44).

ويظهر وجه مخالفتهم في جعلهم ترك السبب أعلى مرتبة من فعله، والكسب رخصة للضعفاء. وقد يحمل بعض الصوفية عبارة "قطع الأسباب" على قطع تعلّق القلب بها لا على ترك العمل بها، وهذا المعنى صحيح. وإنما المخالفة في تفضيل ترك السبب المأمور به وجعله من كمال التوكل، وأهل السنة والجماعة يجعلون التوكل عمل القلب، مع الأخذ بالسبب المأمور به وقد جمع شيخ الإسلام ابن تيمية: الطرفين والوسط بقوله: "الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع"⁽¹⁾، وقرّر ابن القيم -رحمه الله- أن "ترك الأسباب المأمور بها قاذح في التوكل"⁽²⁾. وفي الحديث ما يبطل قولهم؛ فإن النبي ﷺ أثنى على من كانت الآخرة نيته بأن جعل الله "غناه في قلبه"، فالمدح متوجه إلى حال القلب وتعلّقه بالآخرة، لا إلى ترك العمل وذرّ من كانت الدنيا همّه، فالذمّ متوجه إلى جعل الدنيا همّاً، لا إلى السعي فيها.

وفي ترك الدعاء رضا بالقدر: ومما يتفرع على هذا الأصل عندهم ترك الدعاء رضاً بالقدر، وقد قسّم الغزالي حال التوكل في قوّته ثلاث درجات وهو تقسيم غير تقسيمه السابق في ملابسة الأسباب، وقال في الدرجة الثالثة، وهي أعلاها عنده: «وهذا المقام في التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته»⁽³⁾.

ونقل القشيري -رحمه الله- كذلك الخلاف في مسألة أن الأفضل الدعاء أم السكوت والرضا فقال: "وطائفة قالوا: السكوت والخمود تحت جريان الحكم أتم، والرضا بما سبق من اختيار الحق أولى، ولهذا قال الواسطي: اختيار ما جرى لك في الأزل خير لك من معارضة الوقت". ثم اختار أن ذلك يختلف باختلاف الأوقات والأحوال"⁽⁴⁾.

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- بقوله: "والسؤال من الأسباب التي ينال بها مغفرته ورحمته وهده ونصره ورزقه"⁽⁵⁾. فالدعاء عند أهل السنة والجماعة من الأسباب المقدرة، وقد أمر الله به فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، وتركه بدعوى الرضا بالقدر تعطيل لسبب شرعي. وفي الحديث ترتيب الجزاء على همّ القلب وإرادته، ويؤيد ذلك أيضاً قول النبي ﷺ "من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه"⁽⁶⁾، وهذا دليل على أن أعمال العبد القلبية والقولية أسباب مؤثرة بإذن الله، والدعاء من أجلها.

(1) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (528/8).

(2) مدارج السالكين، لابن القيم (389/2).

(3) إحياء علوم الدين، للغزالي (261/4).

(4) الرسالة القشيرية، للقشيري (560).

(5) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (7/8).

(6) أخرجه مسلم بن الحجاج في صحيحه، كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى، رقم (1909).

المطلب الثالث: أثر الإيمان باليوم الآخر على العبد:

تظهر آثار الإيمان باليوم الآخر في حياة العبد في صور منها:

أولاً: تحقيق الإخلاص لله: إن أثر الإيمان باليوم الآخر على الفرد في إخلاصه ليظهر في تعبده وتعامله، فلا يرأى أحداً في عبادة؛ لأنه يعلم أن الله قد أمر بالإخلاص فيها فقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: 5]. فيظهر أثر الإخلاص في صلاته، وزكاته، وصومه، وحجه، وسمته وخلقه، وفي جميع تعاملاته، فيؤدي ما أوتمن عليه على أكمل وجه⁽¹⁾، كما يؤكد شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- حقيقة ذلك بقوله: "وأما الإخلاص فهو حقيقة الإسلام إذ الإسلام هو الاستسلام لله لا لغيره⁽²⁾". فالؤمن يعلم أن أعماله تُعرض عليه يوم القيامة، وأن الله لا يقبل منها إلا ما كان خالصاً.

ثانياً: تحقيق العبودية لله -سبحانه وتعالى- وكفاية العبد أمر رزقه:

نقل شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- عن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- قوله: "يا ابن آدم أنت مُحْتَاجٌ إِلَى نصيبك من الدنيا وأنت إلى نصيبك من الآخرة أَحْوَجُ، فإن بدأت بنصيبك من الآخرة مُرَّ بنصيبك من الدنيا، فانظمها انتظاماً... وأصل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]⁽³⁾."

فمن آمن باليوم الآخر وجعله أكبر همه حقَّ الغاية التي خُلق لها، وهي العبودية وتكفل الله سبحانه وتعالى له برزقه.

ثالثاً: تحرر القلب من رِقِّ المال، مع الأخذ بالأسباب:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- "ثم ينبغي له أن يأخذ المال بسخاوة نفس ليبارك له فيه، ولا يأخذه بإشراف وهلع؛ بل يكون المال عنده بمنزلة الخلاء الذي يحتاج إليه من غير أن يكون له في القلب مكانة... فأما تعيين مكسب على مكسب من صناعة أو تجارة... فليستخر الله تعالى"⁽⁴⁾. وفيه تقرير لمنهج أهل السنة والجماعة ووسطيتها في السعي والكسب والبذل ويستخير لکن الدنيا في يده لا في قلبه.

(1) الإيمان باليوم الآخر وأثره على الفرد والمجتمع، لعيسى، ص 615.

(2) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (14/10). وانظر: أمراض القلوب وشفائها، لابن تيمية، ص 41.

(3) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لابن مفلح، ص 134.

(4) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (663/10).

وبين ابن القيم -رحمه الله- أثر التفكير في الآخرة في زهد العبد وعلو همته بقوله: "إذا فكر في الآخرة وشرفها ودوامها وفي الدنيا وخسئها وفنائها؛ أثمر له ذلك الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا، وكلما فكر في قصر الأمل وضيق الوقت أورثه ذلك الجد والاجتهاد وبذل الوسع في اغتنام الوقت. وهذه الأفكار تُعلي همته، وتُحييها بعد موتها وسفولها، وتجعله في وادٍ والناس في وادٍ"⁽¹⁾.

رابعاً: كفاية الله عبده حوائجه وهمومه:

وقد ذكر ابن القيم -رحمه الله- فائدة جلية في الفرق بين من كان همه الله ومن كان همه الدنيا فقال: "إذا أصبح العبد وأمسى وليس همه إلا الله وحده تحمّل الله سبحانه حوائجه كلّها، وحمل عنه كلّ ما أهمه، وفرغ قلبه لمحبيته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته. وإن أصبح وأمسى والدنيا همه حمله الله همومها وغمومها وأنكادها، ووكله إلى نفسه... فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبته بلي بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته"⁽²⁾.

فتظهر ثمرة جعل الآخرة همّ العبد في ثلاثة أمور: تفرغ القلب لمحبة الله، واللسان لذكره، والجوارح لطاعته. كما إن الإيمان باليوم الآخر يقود العبد إلى إفراغ الله بالهم والقصد.

خامساً: تحقق الغنى الحقيقي للعبد.

بين ابن القيم -رحمه الله- حقيقة الغنى والفقر بقوله: "فمن طلب الله بصدق وجده، ومن وجده أغناه وجوده عن كلّ شيء... ومن وصل إلى هذا الغنى قرّرت به كل عين لأنه قد قرّرت عينه بالله والفوز بوجوده، ومن لم يصل إليه تقطعت نفسه على الدنيا حسرات..." ثم قال بعد أن أورد حديث زيد بن ثابت بلفظ من أصبح والآخرة أكبر همه... فهذا هو الفقر الحقيقي والغنى الحقيقي إذا كان هذا غنى من كانت الآخرة أكبر همه، فكيف من كان الله أكبر همه؟ فهذا من باب التبيه والأولى"⁽³⁾.

وبهذا يتبين أن ثمرة الإيمان باليوم الآخر ترتقي بالعبد إلى الغاية العليا، وهي إرادة وجه الله تعالى

ومحبته.

(1) الفوائد لابن القيم، ص 287.

(2) المرجع السابق، ص 121.

(3) طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن القيم (95/1-96).

الخاتمة: النتائج والتوصيات:

أولاً: النتائج:

- 1- تعد منزلة أعمال القلوب هي أصل الإيمان وقواعد الدين عند أهل السنة والجماعة وأعمال الجوارح تبع ومكملة لها.
- 2- اثبات سنة الله في حقيقة الجزاء، فالجزاء من جنس العمل، وذلك لمن أراد الآخرة فتحصل له الآخرة والدنيا تبعاً ويظفر بها.
- 3- ظهر بوضوح وسطية أهل السنة والجماعة في باب القدر والأسباب بين الطوائف المنحرفة وذلك لاعتمادهم على الشرع بينما الطوائف المنحرفة حكمت العقل وجعلته عمدتهم.

ثانياً: التوصيات:

- 1- العناية بدراسة المسائل العقدية في الأحاديث النبوية وشروحاتها وفق منهج أهل السنة والجماعة والرد على الانحرافات العقدية.
- 2- العناية بدراسة الأحاديث المتخصصة بأعمال القلوب وحقيقة الدار الآخرة وأثرها في تقوية إيمان العبد والثبات على الدين.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

- 1- إحياء علوم الدين، للغزالي دار المعرفة - بيروت.
- 2- الأصول من علم الأصول، لابن عثيمين، ط: ابن الجوزي 1430هـ.
- 3- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي ط/ دار عطاءات العلم الرياض - الطبعة: الخامسة، 1441 هـ - 2019 م.
- 4- اعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث، محمد الخميس. وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد المملكة العربية السعودية، ط 1/، 1419هـ.
- 5- أمراض القلوب وشفائها لابن تيمية/ المطبعة السلفية - القاهرة ط/ 2/ 1399هـ.
- 6- الإيمان باليوم الآخر وأثره على الفرد والمجتمع مازن بن محمد عيسى. 1433هـ / رسالة ماجستير في العقيدة بجامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية بأم درمان في السودان.
- 7- البحر المحيط الشجاع في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، لمحمد الأثيوبي. دار ابن الجوزي. ط1 1426هـ.
- 8- بدائع الفوائد لابن القيم عطاءات العلم. ط5/ 1440 هـ - 2019 م.
- 9- تحفة الأحوزي، للمباركفوري، : دار الكتب العلمية - بيروت.
- 10- تفسير الراغب الأصفهاني، للراغب الأصفهاني. كلية الآداب - جامعة طنطا، ط1/ 1420 هـ - 1999م.
- 11- تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن. تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي. ط1/ 1422هـ دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان - القاهرة، مصر.
- 12- تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل. دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م.
- 13- تلبيس ابليس، لابن الجوزي ط/ المنيرية. ط2 1347هـ.
- 14- تهافت الفلاسفة، تحقيق: د. سليمان دنيا، الناشر دار المعارف، ط7.
- 15- جامع العلوم والحكم لابن رجب ت الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة - بيروت، ط 7/ 1417 هـ - 1997 م.
- 16- جامع الترمذي لابي عيسى محمد الترمذي، ت: د. بشار عواد معروف- دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان- ط1/ 1417هـ 1996م.
- 17- الرسالة القشيرية لأبي القاسم عبد الكريم القشيري ط دار المنهاج.
- 18- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها الألباني ت 1420 هـ، ط 1/ مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض.

- 19- سنن ابن ماجه لأبي عبد الله محمد القزويني ت/د/بشار عواد معروف، دار الجيل بيروت لبنان- ط 1418/1هـ-1998م.
- 20- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لابن مفلح، ط 1418/1هـ وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف.
- 21- شرح الأربعين النووية لعبدالمحسن البدر.: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامي.
- 22- شرح الأصول الخمسة للقاظمي عبد الجبار تحقيق دكتور عبد الكريم عثمان الناشر: مكتبة وهبة.
- 23- شرح الترغيب والترهيب للمنزري -أحمد حطيطية.
- 24- شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الدمشقي، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وقدم له: د عبد الله بن المحسن التركي- شعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، الطبعة: الثانية، 1411 هـ - 1990 م.
- 25- شرح المواقف، للجرجاني ومعه حاشيتي السيالكوتي، والجلبي ط دار الكتب العلمية.
- 26- شرح رياض الصالحين. لابن عثيمين دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: 1426 هـ
- 27- شرح صحيح البخاري لابن بطال، ت ياسر إبراهيم. مكتبة الرشد - السعودية، الرياض الطبعة: الثانية، 1423 هـ - 2003 م.
- 28- شرح فتح المجيد للغنيمان، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية <http://www.islamweb.net>
- 29- شعب الإيمان - ط الرشد -البيهقي. مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، 1423 هـ - 2003.
- 30- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1374هـ/1955م)، 1517/3. والحديث صحيح؛ لإخراج مسلم له في صحيحه.
- 31- صحيح الجامع الصغير وزياداته للألباني. الناشر: المكتب الإسلامي.
- 32- طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن القيم. دار عطاءات العلم - دار ابن حزم الطبعة: الرابعة، 1440 هـ - 2019 م.
- 33- العقيدة الواسطية، لابن تيمية، الناشر المعارف.
- 34- العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي. دار ومكتبة الهلال.
- 35- غاية المرام في علم الكلام للأمدي، تحقيق: حسن محمود عبد اللطيف، الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة.

- 36- الفواكه الشهية في الخطب المنبرية والخطب المنبرية على المناسبات لعبدالرحمن السعدي /الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الطبعة: الأولى، 1412هـ -.
- 37- الفوائد ، لابن القيم ط عطاءات العلم.
- 38- فيض القدير شرح الجامع الصغير المناوي القاهري، المكتبة التجارية الكبرى - مصر.
- 39- القول السديد شرح كتاب التوحيد لعبدالرحمن السعدي ط النفائس.
- 40- لمعة الاعتقاد ، لابن قدامة. وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية ، الطبعة: الثانية، 1420هـ - 2000م.
- 41- مجلة البحوث الإسلامية - الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد العدد الحادي والتسعون.
- 42- مجموع الفتاوى ، لابن تيمية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة - السعودية ، النشر: 1425 هـ - 2004م.
- 43- مجموع فتاوى ورسائل، لابن عثيمين، الناشر: دار الوطن - دار الثريا ، الطبعة: الأولى، 1407 - 1438 هـ.
- 44- مدارج السالكين، لابن القيم، -ط عطاءات العلم.
- 45- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للملا على القاري. دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 1422هـ - 2002م.
- 46- مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، دار العربية بيروت ط: الثانية، 1403 هـ
- 47- المغني في أبواب التوحيد والعدل، للقاضي أبي الحسن عبد الجبار، ط: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- 48- مقالات الإسلاميين عنى بتصحيحه: هلموت ريتز. الناشر: دار فرانز شتايز، الطبعة: الثالثة، 1400 هـ -1980م.
- 49- الملل والنحل: للشهرستاني الناشر الحلبي.
- 50- منازل السائرين -أبو إسماعيل الهروي - دار الكتب العلمية.
- 51- مناقب الامام احمد لابن الجوزي، دار هجر، الطبعة: الثانية، 1409 هـ.
- 52- المواقف في علم الكلام، لللاجبي، عالم الكتب.
- 53- النبوات، لابن تيمية. أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1420هـ/2000م.
- 54- الوجيز في عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة -عبد الله بن عبد الحميد الأثري. وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1422هـ.



مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية والاجتماعية

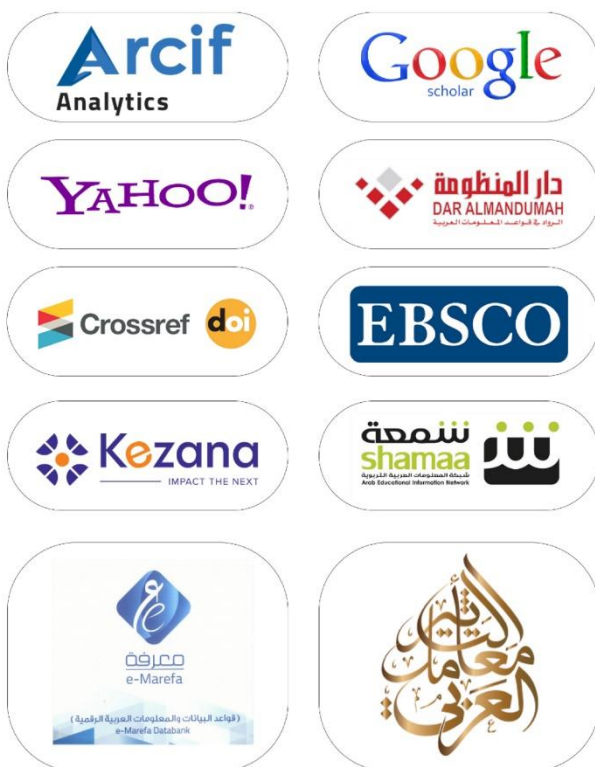
مجلة دولية شهرية علمية محكمة

الترقيم الدولي الإلكتروني: ISSN:2410- 521X

الترقيم الدولي الورقي: ISSN:2410- 1818

البريد الإلكتروني: journal@andalusuniv.net

المجلة مفهرسة في المواقع الآتية :



2025	2024	2023	2022	2021	العام
0.5978	0.3068	0.3759	0.1954	0.2692	معامل أرسيف
1.59	1.55	1.25	1.73	1.60	معامل التأثير العربي